

2007/11/18

أخطأ الجميع ولم ينجح أحد..

محمد السيد السعيد يكتب كلمتنا الأخيرة في قضية "جوئل بن نين" وكتابه

1 - شهادتي من الواقع

"بن نين" كان واضحا تماما في تأييده للحقوق السياسية للشعب الفلسطيني

على صفحات "البديل" وقبلها "العربي" دارت معركة من جانب واحد إلى حد كبير، الطرف الآخر هو أحد أهم المؤرخين والمتخصصين الأمريكيين في الشرق الأوسط ومصر تحديدا وهو "جوئل بن نين". والهجوم عليه كان مكثفا جدا وواسعا جدا شارك فيه عدد لا بأس به من الكتاب والنشطاء والأكاديميين المصريين ، وشمل شخصيات ذات قيمة فكرية ووطنية كبير مثل رعوف عباس وعواطف عبد الرحمن وإيمان يحيى وأسامة عرابي فضلا عن عدد لا بأس به من الأساتذة المصريين في الجامعة الأمريكية .

على الجانب الآخر لم يكن يوجد سوى زميل واحد من جريدة البديل هو أحمد زكي قام يعرض كتاب جوئل بن نين وشعر بأن عليه أن يصحح انطباعات يراها خاطئة في تعيين مواقف الرجل وانتمائه الأيديولوجي والسياسي، وتعرض أحمد بدوره لهجوم شديد ، بل أن البديل ذاتها وهي لم تكن كجريدة طرقا في المناقشة سريعا ما وقعت تحت مطرقة أحد الكتاب بأن أطلق عليها "البديل الصهيوني"! .

أشعر بشئ من المسؤولية الأخلاقية التي تلزمني بالإدلاء برأبي .

مسئوليتي الأخلاقية تقوم على عاملين: الأول هو أنى شاهدت الرجل في الممارسة من داخل حقل الصراع الأيديولوجي والسياسي في الولايات المتحدة أثناء عملي كرئيس لمكاتب الأهرام هناك. أما الثاني فهو موقعي كباحث مصري مهتم بتوسيع مجال النضال ضد الصهيونية إلى المستوى العالمي ودوري في العامل الأخير هو ما أعتقد أنه موازين سليمة للنقاش .

رغم معرفتي بالرجل كأحد أهم المتخصصين في الشؤون المصرية كانت أول مرة ألقاه أثناء حضوري مؤتمر رابطة دراسات الشرق الأوسط وهي الهيئة التي تجمع الاختصاصيين في دراسات الشرق الأوسط وأكثرهم الآن ينتمي للمنطقة ذاتها .

كان "جوئل بن نين" يلقي الخطاب الافتتاحي للرابطة، وهي في الوقت نفسه الخطبة التي ينهى بها رئاسته للرابطة ويقدم فيها خلفه .

وأشهد أن خطبته هذه كادت تبكىني من شدة التأثر لموقفه الداعم للقضية الفلسطينية ولهجومه العاصف على الصهيونية وعلى أنصار المحافظين الجدد وأنصار اللوبي الإسرائيلي والصهيوني وعلى إدارة بوش التي كانت في سبيلها لغزو العراق .

كان واضحا تماما في تأييده للحقوق السياسية للشعب الفلسطيني، كان واضحا جدا في رفضه التام للسياسات العدوانية لإدارة بوش ولمشروع غزو العراق وكان واضحا جدا في رفضه التام للهجوم على الحريات الأكاديمية وللحقوق المدنية في الولايات المتحدة باسم مكافحة الإرهاب، وكان واضحا جدا في ربطه بين الدفاع عن الديمقراطية والعقلانية والتقدم الاجتماعي والحقوق الوطنية خاصة للشعبين الفلسطيني والعراقي .

كان ذلك في وقت استهدفت فيه إدارة بوش والمحافظين الجدد الأكاديميين المتعاطفين مع حقوق الشعب الفلسطيني للضرب بكل الوسائل الرسمية وغير الرسمية، فعلى المستوى غير الرسمي كان جوئل بن نين أسوأ الشخصيات الصهيونية في المجال قد أسس حركة تشجيع الطلاب الصهاينة والمحافظين على فرض الرقابة على الأساتذة المستهدفين ووضع تقارير عنهم وتمكن أيضا مع شخص اسمه كريم من إثارة حملة عاصفة ضد مجال دراسات الشرق الأوسط الذي اتهموه بالتعاطف مع الإرهابيين والعداء للولايات المتحدة .

وكان ولا يزال بؤرة هذا الهجوم المتواصل مع غيره من الأكاديميين الأكثر نزاهة في الولايات المتحدة .

2 - موازين النقاش

أطالب بن نين بالاعتذار فورا لرعوف عباس

بدأ لى أن تناول الرجل وسيرته الأكاديمية والسياسية في الصحافة المصرية مثل ظلما شديدا، ولكن بدأ لى أيضا أنه هو ذاته قام بارتكاب ظلم بين للأكاديميين المصريين، وبمعنى محدد للغاية بدا النقاش وكأنه قد وقع من اللحظة الأولى في سوء تفاهم جوهرى، إذ وجه كل من الطرفين للآخر اتهامات ظالمة وهو يعتقد أنه يرد الظلم الذى وقع عليه من الطرف الآخر، فأكثرية المفكرين المصريين تصرفوا تحت تأثير الانطباع الخاطئ بأن جوئل صهيونى وأنه يشكل جزءا من الهجوم العنصرى ضد المفكرين والنشطاء المصريين الذين يتهمهم فيه بالعداء للسامية.

ورأى أن هذا الاعتقاد خاطئ جملة وتفصيلا، ومع ذلك فإن جوئل ساهم في تغذية هذا الاعتقاد بأن أتهم أحد أهم وأفضل وأكثر مفكرينا أخلاقية ومبدئية وهو المؤرخ المناضل رعوف عباس وغيره بهذا الاتهام. وأطالبه بالاعتذار عن هذا الاتهام وسحبه على الفور .

ولكن بالمقابل فان الدكتور رعوف عباس نفسه ظلم الرجل بأن أشاع عنه أنه إسرائيلي وصهيوني وهو ليس كذلك وأن موقفه من حقوق الشعب الفلسطيني ليس سوى مجرد المطالبة بصيغة مخففة من الاضطهاد العنصرى والاستعماري الإسرائيلي، وأقطع بأن ذلك ليس موقف جوئل بن نين الذي يدين نظام الاحتلال الإسرائيلي والأيدولوجيا الصهيونية عامة ويناصر حقوق الشعب الفلسطيني. هل ينهى هذا التصحيح الأولى القضية؟

لا أعتقد ذلك، فثمة الكثير مما نختلف فيه ويجب أن نختلف فيه مع جوئل بن نين وعشرات غيره من المثقفين والاختصاصيين اليهود في الولايات المتحدة .

الفارق الجوهرى هو أن من واجبنا أن نختلف وأن نناقش وننقد مواقف وآراء جوئل بن نين مع غيره من المتخصصين الذين يرفضون الصهيونية ابتداء .

أما موقفنا من الاختصاصيين الصهاينة فلا يقبل سوى الصراع الفكرى والسياسى الذى يستهدف عزلهم وهزيمتهم باعتبارهم شركاء فى نظام القهر والاستعمار الاستيطانى الإسرائيلى .

3 - النقاش حول الكتاب

من الطبيعى أن يخلط الكتاب بين النزعة القومية ونزعة العداة لليهود... وهذا خلط خاطئ

المعيار الحاسم فى الموقف من الصهيونية هو الانتماء الأيدولوجى والمدرسة الفكرية التى يطبقها المفكر أو الباحث فى ميدانه المعرفى والواقع أن جوئل بن نين لا يتوقف عند الإعلان الواضح فى خطابه السياسى الصريح فى الحدود التى استمعت لها عدة مرات فى المنابر الإعلامية الأمريكية، بل هو يمارس هذا الرفض بكل وضوح فى ميدانه المعرفى بما فى ذلك كتابه الأخير حول شتات اليهود المصريين.

هذا الوضوح المعرفى له ترجمته فى الحقل السياسى، فإسرائيل ترفض أعماله بوضوح مماثل وتسبب هذه الأعمال بما فى ذلك كتابه الأخير نفورا شديدا منه فى إسرائيل وفى الدوائر الصهيونية. تقول الكاتبة الإسرائيلية أليسا لابين: "جوئل بن نين" يمقت إسرائيل كما يقر هو نفسه فى هذا الكتاب. وفى هذا الكتاب مثل كتبه الأخرى يسعى لأن ينتصر للماركسية ويقبل من شأن إسرائيل واليهود واليهودية، وهو ينفى القصص التى يرويها عدد من اليهود المهاجرين لإسرائيل على أساس أنها تحمل بصمات الصهيونية .

وتستطيع أن تشعر بالرفض الإسرائيلي الرهيب لـ "جوئل بن نين" بمجرد قراءة معظم أو كل التعليقات الإسرائيلية على كتاب جوئل بن نين وثمة عدد لا بأس بها متاح على الشبكة الإلكترونية لمن يريد القراءة .

ولكن ما يهمنا هنا مباشرة هو ما يقوله في كتابه الأخير حول القضية التي تتقاطع عندها اهتماماته كيهودى وتخصصه فى الشؤون المصرية .

ينسب جوئل بن نين بعض المسؤولية عن محنة اليهود المصريين للأيدولوجية الوطنية والدينية التي تعاضمت فى مصر منذ بداية الأربعينيات حتى نهاية العصر الناصرى، ولكنه ينسب الجانب الأكبر من المسؤولية الأيدولوجية للأنشطة الصهيونية فى مصر التي كانت تدار من إسرائيل ذاتها .

اننا نختلف معه فى مدى مسؤولية التيار الوطنى والدينى فى مصر عن محنة اليهود وخروجهم الكامل تقريبا من مصر عام 1956 ويمكننا أن نختلف فى مدى انتشار الحركة الصهيونية فى صفوف اليهود المصريين، ولكن فى كل الأحوال فإن خصومته الأيدولوجية والمعرفية مع الصهيونية أكثر من واضحة ، فهو بكل بساطة يعزو الجانب الأساسى من المسؤولية عن تصفية الوجود المادى لليهود المصريين إلى الحركة الصهيونية وإسرائيل .

وهو فى الواقع لا ينفرد بهذه الفكرة ، أما أهم مساهماته فى هذا الكتاب فهى أطروحته الجوهرية والتي تقول أن اليهود المصريين كانوا فى أغلبهم جزءا لا يتجزأ من الجماعة الوطنية المصرية وأنهم كانوا أيضا لفترة طويلة جزءا من المشروع الوطنى المصرى وشركاء فى النضال ضد الاستعمار الأوروبى، وأهمية هذه الفكرة هى أنها تتفى معرفيا أساسيات الفكرة الصهيونية التي تثبت ما تسميه بالمسألة اليهودية وترفض تماما إمكانية أن يذوب اليهود فى المجتمعات الأخرى غير اليهودية .

العكس تماما هو ما يقوله بعض نقادنا المصريين! هم يقولون أن اليهود المصريين كانوا غرباء مارسوا الاستغلال الطبقي والاستعماري فى مصر وضد المصريين! .

الانقلاب فى المواقف هنا مثير، جوئل بن نين اليهودى ينفى أحد أهم ركائز الصهيونية، فالصهيونية تقول أن اليهودى لا يمكن أن ينتمى أو يقبل فى أى مجتمع غير يهودى وأن اليهودى يتحقق فقط فى المجتمع اليهودى الخالص أى فى إسرائيل،! ولذلك يركز الصهاينة على بعض صور التمييز القانونى فى مصر مثل قانون الشركات العام أو قانون الجنسية العام .

أما غالبية اليهود المصريين أنفسهم فيركزون على تجربة الحياة الرائعة التي حظوا بها في مصر وأكثرهم يكاد يتوحد مع ذكريات رومانسية مازالت متوهجة عن حياته في مصر خاصة في القاهرة والإسكندرية، ولدينا عدة كتب تسجل هذه الذكريات بالغة الدفء والناطقة بالحب لمصر في هذه الحقبة.

الرواية الصهيونية أو المتأثرة بالصهيونية تبرز التمييز القانوني ضد اليهود المصريين في ظل صعود الوطنية المصرية، وبالمقابل فالمدرسة الوطنية المصرية انجرفت لسلب أى شرعية وطنية عن الوجود اليهودي في مصر وتجعلهم يبدون كمجرد أعراب سلبوا مصر خيراتها واستغلوا وشكلوا فيها جيوبا تنتمي للاستعمار بأكثر مما تنتمي لمصر .

هل يتوقع أحد من باحث يهودي مثل جوئل بن نين أن يتبنى وجهة النظر هذه عن اليهود المصريين خلال العصر الليبرالي؟ .

يبدو من المنطقي للغاية أن يرفض جوئل بن نين هذه النظرة السلبية لليهود وأن ينقد بشدة القائمين بها خاصة الأكثر تطرفا في الأخذ بها مثل الباحث المصري القدير الراحل أنس مصطفى كامل ، ومن الطبيعي أن يخلط جوئل بن نين بين النزعة القومية التي تبرز في هذه الرؤية لليهود المصريين خاصة الطبقة الرأسمالية من ناحية ونزعة العداة لليهود المسماة بالعداء للسامية من ناحية ثانية .

وأنا أعتقد أن هذا الخلط خاطئ خاصة أنه قاده لهجوم غير عادل على بعض الباحثين المصريين، ولكن يجب علينا نحن المصريين أن نفهم هذا الهجوم في سياقه المنطقي والعملى، إذ ليس من الممكن أن يقبل به باحث يهودي مهما كان نزيها ، ويبدو من المنطقي للغاية أن يقدم جوئل بن نين نقدا شديدا لهذه النظرة لأنها تتناقض تماما مع تصويره هو لليهود المصريين .

وبينما يقول جوئل بن نين أن غالبية اليهود المصريين لم يتأثروا بالصهيونية فالكتاب المصريون يقولون بالعكس: إن غالبية اليهود المصريين كانوا صهاينة.

الاختلاف بذاته مثير، ورأى جوئل بن نين فيه لا يختلف كثيرا عن رأى كاتب مصرى معروف بالنزاهة الضافية وهو د. محمد أبو الغار، وبالطبع لم يحظ أبو الغار ولو بنسبة بسيطة من الهجوم الشامل والقاسى الذى حظى به جوئل بن نين فى الحالتين، الفكرة الأساسية هى أن غالبية اليهود المصريين كانوا جزءا من الجماعة الوطنية المصرية وأنهم كانوا محبين لمصر وأن المسؤولية الأساسية عن تصفيتهم من مصر تعزى لإسرائيل و الحركة الصهيونية .

بالطبع لا يمكن تصوير موقف اليهود المصريين فى جملة بسيطة، وجوئل بن نين يبذل جهدا كبيرا فى تفسير اختلاف درجة تأثر اليهود بالصهيونية مقابل ولأهم لمصر، ومع ذلك فالاختلافات فى التقدير واردة والمفروض أنها صحية .

ولكن هذا الاختلاف الشرعى فى التفسير لم يكن من المفروض أن يقود للتعمية على مساحة واسعة من الاتفاق وهى: أن المسئولية الأساسية عن محنة اليهود المصريين تقع على كاهل الصهيونية وإسرائيل.

4 - من يحتاج جوئل بن نين؟

بن نين يرفض الصهيونية نظريا ولكنه يضىفى شرعية عملية على إسرائيل بالتعامل معها

يتخذ موقفا أقل بكثير من غيره من اليهود التقدميين فى الولايات المتحدة

سليتعادة الحركة الوطنية المصرية وإعادة تأسيس التحالف القومى المناهض للصهيونية والاستعمار بكل صورته هى المهمة المركزية للقوى التقدمية فى مصر، ولكن المعركة ضد الاستعمار والصهيونية هى بالضرورة معركة عالمية، وهذه هى المسألة التى لم ينجح الجيل الحالى من الوطنيين والتقدميين المصريين فى استيعابها بصورة كافية لأسباب مفهومة تماما .

فإن كانت المعركة عالمية فإن النهوض بأعبائها يحتم التعامل مع المعطيات الأساسية للفرز والاستقطاب السياسى والأيدىولوجى فى المستوى العالمى الكلى وعلى مستوى كل نظام ثقافى إقليمى على حده أيضا .

وربما يكون الخطأ الذى وقع فيه مفكرون وكتابنا ونشطاننا هو أنهم يناقشون مختلف القضايا ذات الصلة بالنضال ضد الصهيونية والإمبريالية على المستوى الوطنى والقومى وحده وكأن العالم غائب عن هذه المعركة .

والواقع أن كسب المعركة ضد الصهيونية والإمبريالية يتوقف إلى حد بعيد على كسبها فى عقر دار الإمبريالية خاصة فى أمريكا وأوروبا الغربية .

وتحتم علينا هذه المهمة أن نتعامل مع الفرز والاستقطاب الحاصل فى هذه المناطق بقدر معقول من المبدئية والمرونة فى الوقت نفسه، وقد نستطيع أن نناقش كل كاتب ونشط سياسى وفقا لموقعه من المعركة ضد الإمبريالية والصهيونية فى كل حقبة محددة، وفيما أعتقد أن جوئل بن نين له دور إيجابى بأعماله الفكرية ومدرسته الأكاديمية وتلامذته وزملائه المنتشرين فى أمريكا الشمالية . هذا الدور الإيجابى يحتم علينا إجراء نقاش دائم معه بصورة نقدية وبناءة معا ، فنحن فعلا نختلف وسوف نختلف معه وعلينا أن نحرك هذا الخلاف جدلياً.

جوئل بن نين باحث مدقق وينتمى لمدرسة التاريخ التجريبي حيث يمثل الدليل الميداني جوهر البحث ومعيار مقبوليته ومصداقيته . ولكن مهما كان إيمان أى باحث بالموضوعية فهو لا يمكن أن ينخلع عن هذا الكل المعقد الذى يتشكل من انتماءاته وقناعاته الفكرية والأيدولوجية وتجربة حياته وأمانيه، ويصدق ذلك على جوئل بن نين مثلما يصدق على المؤرخين والمتقنين المصريين الذين يهاجمونه بهذا العنف.

يعيش جوئل بن نين مثله مثل غالبية الأكاديميين والباحثين والنشطاء الماركسيين واليساريين اليهود الأمريكيين والأوروبيين فى حقل متناقض وحافل بالتوترات ، فهو يرفض الصهيونية نظريا ولكنه يضىف شرعية عملية على إسرائيل بالتعامل معها بصورة اعتيادية وهو هنا يتخذ موقفا أقل بكثير من غيره من اليهود التقدميين فى الولايات المتحدة الذين يناضلون من أجل وقف الاستثمارات الجامعية الأمريكية والأوروبية فى إسرائيل .

وهو يؤيد حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره ولكنه يؤيد حل الدولتين، وهو حل لا يمكن أن يكون مبدئيا أو نهائيا لأن تصفية الطابع العنصرى لإسرائيل هو الحق الوحيد الذى يسمح بتحرر حقيقى للشعب الفلسطينى أى الحل الذى يقوم على فكرة الدولة الديمقراطية الواحدة .

لا نحتاج لاستنتاج أننا نختلف اختلافات مهمة مع جوئل بن نين ولكن السؤال هو: إن لم نقبل من حيث المبدأ بالحوار المفتوح مع شخص مثل جوئل بن نين فمع من نقبل الحوار فى العالم كله وفى الغرب تحديدا .

نحتاج للحوار مع جوئل بن نين لأننا نحتاج لبناء تحالف ديمقراطى وعالمى واسع لفضح الصهيونية وتفكيكها وعزلها وهزيمتها بنهاية المطاف .